

سياسة

إذا قلنا أن غاندى لم يكن سياسياً فنحن لا نريد بذلك أنه كان دون السياسيين فى ملكات عقله ، ولا أنه كان مفتقراً إلى الدهاء الذى تقوم عليه السياسة . فإنه لم يكن خلواً من الدهاء ، ولم يكن مقصراً عن الساسة فى ملكات العقل والسليقة . ولكنه لم يكن سياسياً لأنه كان يعمل فى سياسة قومه بأسلوب غير أساليب الساسة ، بل غير أساليب الدعاة الشعبيين فى أكثر الأحيان .

كان يعمل فى السياسة بأساليب القديسين . وكانت ، الأهمس ، أو المقاومة السلبية رأس ماله فى كل خطة يواجه بها قومه ، أو يواجه بها الدولة البريطانية ، أو يواجه بها كائناً من كان ممن يخشى منهم خطر على بلاده .

كان الخطر اليابانى محدقاً بالهند بعد جلاء الجيوش البريطانية عن سنغافورة وبرما وبلاد الملايو فى إبان الحرب العالمية الثانية ، وكان هو يعلن الإنجليز بوجوب الجلاء عن جميع البلاد الهندية قبل توقف القتال ، فلما سأل مرأسلو الصحف الأجنبية عن الخطر اليابانى قال : إننا نواجه هذا



obeykandi.com

الخطر بالمقاومة السلبية ، كما واجهنا بها سلطان الدولة البريطانية . ولم يكن هذا رأى نهر و زملائه من أصحاب الرأى فى المؤتمر الهندى ، لأنهم كانوا على استعداد لمواجهة الخطر اليابانى بالمقاومة العسكرية ، وكانوا على استعداد للوفاقه على إبقاء فرق من جيوش الحلفاء فى الهند الاشتراك فى الدفاع عنها . ولم يرفض غاندى كل الرفض أن تبقى الجيوش لهذا الغرض دون غيره . ولكنه كان يؤمن بالمقاومة السلبية فوق إيمانه بالقوة العسكرية . وكان يقول لأبناء وطنه وللأجانب المتحدثين إليه : « إبنى أومن - سواء صدق الناس أو لم يصدقوا - أنه كلما كان العمل عملا من أعمال ترك العنف أو المقاومة السلبية فالعامل الحاسم فى هذا الموقف ، هو الله »

فإذا أغار اليابانيون على الهند فكل ما يطلب من أهلها لدفع خطرهم هو السكف عن مقابلة العنف بالعنف والسكف عن التعاون معهم فى حكم البلاد ، وهذه - فى رأى غاندى - مقاومة كافية لتحقيق الغرض منها ، وهو قل سلاح العدوان وتعويق المعتدى عن بلوغ مقصده من عدوانه . فإن بقي بعد ذلك عمل لازم نكبح جماح المعتدى فما بقي بعد ذلك فهو من عمل الله .

ومتى كانت ، الأهمسا ، هى رائد السياسى فى مقاومته

فلا عليه أن يحدث من جرائمها ما عسى أن يحدث من شدة
وضرر. فإنما الحرام هو إيقاع الضرر عمداً وإيقاعه من
طريق العنف والسورة الغضبية. فإذا جاء الضرر من غير هذه
الطريق فلا جناح عليه ولا حيلة له في منعه، لأنه لا يستطيع
أن يمنع لو شاء.

زار البلاد الانجليزية للتشاور في القضية الهندية، فأخذوه
إلى مساكن العمال المتعطلين وأشهدوه ما فيها من بؤس وفاقة،
وأحبوا أن يقنعوه من حيث يقتنع إذ طرّقوا فكره من باب
الرحمة والتورع عن إيذاء الأبرياء. فقالوا له: إن هذا البؤس
الذي يراه أثر من آثار سياسته التي يدعو إليها، وهي مقاطعة
البضائع الانجليزية وتعويل أهل الهند على ما يصنعونه بأيديهم
من الكساء ومطالب المعيشة.

فبدا عليه أسف شديد، ولكنه قال أنه لا يستطيع أن
يعدل عن دعوته، وأن في الهند من ألوان البؤس والفاقة
ما هو أنكأ للنفس مما رآه.

ولم يكن هذا الاصرار عجيباً من قديس الرحمة والمحبة بين
الناس. فإنما كان شأنه في هذا كشأن الطبيب الذي ينهى
الناس عن التخمّة والإفراط في المآكل. فلا يلام إذا كان
في اتباع الناس لنصيحته خسارة على المطاعم أو الصيدليات،

ولا يطلب منه أن يسكت عن محاربة التهمة والافراط لأن
أناساً يستفيدون إذا تخم الناس ويخسرون إذا أخذوا بالحية
والاعتدال .

° ° °

وقد قيل له مرة : لماذا يفرغ جبهه في المطالبة باستقلال
الهند ولا يفرغ هذا الجهد فيما هو أعظم من ذلك وأكمل :
وهو المطالبة بالأخاء العالمى أو بالوحدة العالمية ؟ .

فكان جوابه غاية في الاقتناع وغاية في الدهاء ، وقال
لسائله - وهم من الصحفيين الأمريكيين - : إن الأخاء العالمى
لا يصلح إلا لأخوة أحرار ، وأنه إذا كان مقصوراً على
المتصربين في الحرب ، فغاية ما يربح منه أن يمكن فريقاً من
فريق ، وأن يقسم العالم إلى أعداء غالبين وأعداء مغلوبين .
فإذا صدقت النية في التبشير بالأخاء بين بنى الإنسان فليكن
أخاء بين أحرار ، وليدخل في زمرة المهزومون في ميادين
القتال ، ولا يعامل أحد من هؤلاء المهزومين معاملة التشفي
والانتقام .

° ° °

وعنى عن القول أن غاندى لم يكن ليحرم المقاومة العنيفة
على أهل الهند ويبيحها لغيرهم من الأمم في سبيل غاية من

الغابات . فن شاء أن يقاوم عدوه بالسلاح فهو وشأنه فيما يشاء . وقد كان غاندى يكتب إلى « شيان كاي شيك » زعيم الصين فيحيي فيه جهاده في تحرير بلاده ، ونسكته إذا سئل رأيه في أفضل الوسائل فليست لديه وسيلة أفضل من « الالهسا » لدفع كل خطر وتبليغ كل مقصود . وبخاصة إذا كان المقصود هو تعميم الأخاء بين بني الانسان وإقامة الوحدة العالمية بين جميع الشعوب . فما من بلاء يحول بين الناس وبين إقامة هذه الوحدة الا كانت « الالهسا » ترياقاً له أنجح من كل ترياق ، ولا استثناء في هذا لشيء قط حتى بلاء الفاشية أو بلاء النازية أو بلاء المذاهب المادية . فما على الناس إلا أن يكفوا عن مقاومة عنفها بشلله : وأن يكفوا عن معاداتها في مضامعها ، وأن يقرنوا الكف بالكفاف والقناعة ، فإذا بهذه الغاية الموهومة أدنى إلى هذه الوسيلة من كل وسيلة يعتمد عليها الساسة والدعاة .

• • •

ومن البديهي أن رجلاً كهنا لا يضم في طويته نفسه عداً لأحد من خصومه أو الساخطين عليه ، وكثيراً ما كان يخرج أولئك الخصوم ويوقعهم في الحيرة والارتباك بجزائر عمله ، كما كان يفعل حين يعلن المقاطعة أو عدم التعاون

أو يتذر الحيايم حتى الموت أو يتحدى القوة والقانون ،
ولسكنه لا يزال يخرج من يخرج وحيرة من يحار ما دام هو
مستريح الضمير ، وأنه لمستريح الضمير أبداً ما دام في حدود
، الالهسا ، التي هي في شرعه رأس الحكمة وجماع الفروض
والواجبات ، أو مادام مخلصاً في اجتناب العدوان ، مخلصاً في
منع الحرج لو استطاع .

• • •

وإذا كانت هذه أساليبه في معاملة الدولة البريطانية
لاجرم يجرى على هذه الأساليب نفسها في معاملة الطوائف
الهندية من غير النحلة الديفية التي ينتمى إليها . فكان يعطى
على طائفة المنبوذين ويطلب لهم حقوقاً مساوية لساير الحقوق
ولا يأتى ما يليه من التمييز في صدور المتعصبين من كبراهمة
بهذه الدعوة التي تحرق سنن الحياة الهندية من أقدم عصورها ،
وكان يأبى اضطهاد المسلمين ويشير عليه السخط من جراء هذه
المعاملة التي أودت بحياته . وسئل مرة وهو يطلب الانجليز
بالجلاء عن الهند كلها : هل هو على استعداد لتسليم الحكومة
الهندية إلى جماعة الرابطة الإسلامية إذا وجب قيام حكومة
موقوتة في فترة الانتقال بين جلاء الانجليز وقيام الحكومة
الهندية الدائمة ؟ سأله تاجر مسلم من بومباي هذا السؤال باسم

القائد الإسلامى الأعظم محمد جنة ، فكان جوابه : نعم
بلا قيد ولا شرط ولا تحفظ ، إننى أقبل فى هذه الحالة تسليم
الحكومة الهندية لجماعة الرابطة الإسلامية فى أقاليمها وفى
غير أقاليمها .

ومن أبناء الطوائف من يتهمة بالمكر والمداجاة فى سياسته
مع هذه الطوائف ، وأنه يظهر لها الحسنى ويبطن التعصب
لأبناء نحلته من ورائها . قالوا : ومن أدلة ذلك أنه نذر الصوم
حين همت الحكومة البريطانية بتقسيم دوائر انتخابية ،
للسيوديين بفردون بالانتخاب فيها ، لأنه كان يخشى أن تتمزق
أوصال البلاد وتنطلق فيها دواعى الفتنة بهذا التقسيم .
قالوا : ومن أدلة ذلك أيضاً أنه كان على رأس قادة
المؤتمر فى مناقشة « الباكستان » وتبادل السكان .

وهذه ولا ريب تهم خليقة أن يقال فى أمثال هذه الأحوال
ولكن غاندى لم يزعم قط أنه منبوذ أو أنه مسلم ، ولم يزعم
قط أنه خارج عن نحلته واعتقاده ، فلا يطلب منه أن يكون
من أبناء هذه الطوائف فى طويته وسعيه ، ولا أن ينكر على
طائفته كل ما تدعيه ، وما لم يطلب منه هذا فالحقيقة التى لا تقبل
المكابرة أن إنصافه للطوائف أكرم إنصاف ينتظر مع
هذا الخلاف .

ومن السخف أن يقال إن الرجل وقف حياته « للاهمسا »

ونفض عنه فن الحياة وشهواتها ليرتج السياسة الطائفية من وراء هذا الستار .

فهو مخلص في عقيدته وفي سياسته غاية ما يستطيع من إخلاص ، وليس في طاقة الإنسان وراء هذا الإخلاص غاية لمستطيع .

وليس تظريبات ، الأهمسا ، هي موضع البحث حين نبحث في قدرة غاندى السياسية أو في برامج الوطنية .

فإن إنكار القوة العنيفة كل الإنكار خطأ لا شك فيه . وإن الإيمان بالقوة العنيفة كل الإيمان خطأ كذلك لا شك فيه . وكل مذهب سياسى يمكن أن يقال فى جملة ما يقال عن مذهب غاندى فى معرض التخطئة والتصويب .

وإنما موضع البحث فى هذه القدرة السياسية ما اقتدرت عليه ، وما أنجزته على هوى غاندى وعلى غير هواه .

مثل غاندى فى ذلك مثل من ينشئ قوة كهربائية لغرس الأزهار والرياحين ، فتنشأ هذه القوة وتغرس بها الآجام والأدغال وكثير أو قليل من الأزهار والرياحين .

فلا نسأل فى تقدير تلك القوة : ماذا أراد المهندس ؟ ولستنا نسأل ماذا يجدى مراد الآخرين لو لم يعطهم المهندس تلك القوة ؟ وقد كان غاندى مهندساً عظيماً لأنه أنشأ تلك القوة ، وإن ترك الانتفاع بتصريفها فى أيدي المقادير .

مفتاح شخصية

سيرة غاندى فى معيشته من أبسط السير التى عرفناها
لعظيم من عظماء العالم قديمه وحديثه . ولكن هذه السيرة على
بساطتها قد اشتملت على جملة من النقاىض ، قلما عرفت عن
حياة عظيم .

إن الرجل ، عصرى ، بزمته وتعليمه ، تعلم فى أحدث
الجامعات ، وعاش فى أحدث البيئات الإنجليزىة ، وتثقف فى
بلاده وفى أوروبا على النمط الحديث . ولكنك تحسبه من عجائز
القرون الوسطى إذ سمعت مثلاً برأيه فى الطب والعلاج .
فكان يأبى أن يدخل لقاح الجدري فى جسمه ، لأنه
مأخوذ من جسم البقر ، ويقول لمن حوله إنهم فى حل من
التوى بهذا اللقاح ، أما هو فلا يستحل لنفسه وإن كان
لا ينكر فعله فى الوقاية .

ولم يقبل أن يعالج بالجراحة فى السجن إلا حين رأى
مدير السجن بضرب بين يديه ويخشى العاقبة إذا مات وهو
سجين عنده ، لما يحدثه موته فى السجن من سوء الأثر فى سمعة
الحولة البريطانىة .

بمرض ابنه الثاني بذات الصدر ، فأصابه الخزال ، واحتاج
 إلى غذاء أتوى من الأغذية نباتية والأغذية المباشرة في الشريعة
 الجينية ، وأشار الأطباء بإطعامه البيض وحساء الفول بريج
 وغيرها من الأطعمة الحيوانية . فأبى غاندى أن يغذى جسمه
 حياً بحسب حى ، وإن كانت حياة رداء في خطر ، وكانت هذه
 التغذية منقذة له في رأى الأطباء ، وأبى أن يرضى الأمر
 على ولده ، وقال له إنه يرجو خيراً من استخدام العلاج
 المسمى Hydropathic Treatment مداواة علته ، فسكان
 أتولد سرأيه حقاً ، وأبى الصبي أن يأكل البيض والفول بريج ،
 مكثفياً بعصير البرتقال وبعض الأغذية المباشرة ، معتدلاً
 على وصفة الأطباء المائنين . فشامت المقادير أن يتم له الشفاء .
 ومن رأى غاندى في الذلورية عامة أن ضررها أكبر من
 نفعها . لأن البيئة كفيفة بإصلاح نقصها ، وغاية ما يستقيده
 المريض إذا أنخر معدته أو جار على قواه فاستثنى بالدواء ،
 أن يغريه هذا الشفاء بالعودة إلى الخطأ والتمادى فيه . ولولا
 ذلك لقوّم معيشته فاستقام .

على أن المبادئ يستعمل بالنظارات وبالأمتلاك الصناعية
 ولا يرى في استخدامها خروجاً على منه للتشفس وترك
 المكنون .

إذا أن هذا الرجل الذى يتخرج هذا التخرج من الماس
بحياة مخلوق لم يتخرج من قتل عجول ولا من الإشارة باستخدام
المقلاع فى طرد القرودة التى تغير على الحقول ، وهى أكثر من
أن تطاق حيث كان يقيم فى . أحمد أباد . . ولكنه لم يقبل
قتل العجل إلا بعد أن برحت به آلام المرض تبريحاً لا يرجى
شفائه منه ، ولم يقبل تعرض القرودة للموت برمية حجر هنا
أوهناك إلا لأنها كانت تعرض للموت والجوع حياة الأدميين .

وكان غاندى يعيش فى عصر ، الصور المتحركة ، الذى
غلبت فيه شهرة الممثلين والممثلات على شهرة الساسة والعلماء ،
وتسامع فيه الأميون بين القرى السحيقة بأسماء أبطالها
وبطالاتها حيث لا يسمعون بما وراء قريتهم فى سائر الشئون .
ولكنه مع هذا لم يعرف من هو ، شارلى شابلن ، حين
زاره فى العاصمة الانجليزية وحمل إليه حاجبه بطاقة الممثل
الكبير . فسأل الحاجب : من يكون السيد صاحب البطاقة ؟
وأعرب من هذا أنهما لما التقيا رأى الحاضرون فى ذلك
المجلس الشريف ما لم يخطر لهم على بال : رأوا أمير الجد
والنسك هو الذى نازش أمير الفكاهة واللهو ضاحكاً مستغرباً
طوال فترة الحديث .

وكان غاندى يؤمن بأن "الموكتشا" أو اعتزال العلاقات الجنسية هو سبيل الخلاص الأعظم ومعراج الروح إلى عالم الصفاء والخلود .

وكان يؤثر المذهب الكاثوليكي على المذهب البروتستانتي في الديانة المسيحية ، ويقول إن الرهبانية هي التي صانت للكنيسة الكاثوليكية تضرتها وحفظت عليها قداستها . وقد أقسم وهو في نحو السابعة والثلاثين قسم التبتل المعروف عندهم بالبرهماشاريا Brahmacharya فاعتزل زوجته منذ ذلك الحين .

ولمكنه لما عرضت له مشكلة الأيام الصغيرة جرد نفسه للعناية بتزويجهن وأوصى الشباب أن يقبلوا على الزواج من هؤلاء الفتيات المهجورات . خلافاً للعرف الذى قضى فى الهند بتحريم الزواج عليهن مدى الحياة ، لأنهن مندورات لأزواجهن فى عالم الجسد وفى عالم الروح .

ولما سئل رأيه فى المعقبات ألحى عليها أشد الانحاء ، لأنها تجعل العلاقة الجنسية بين الزوجين محض شهوة ، وتسلبها المسوغ الوحيد لقيامها ، وهو إنجاب الأبناء .

وكان غاندى صحفياً يصدر صحيفة دورية ويكتبها ويواظب على إصدارها وكتابتها

ولكنه حذر من الصحافة وأسف لتهاقت الناس عليها ،
فقال غير مرة بمختلف العبارات : « أقول لكم إن الصحافة
لن تعطىكم شيئاً فيه لكم مصلحة دائمة . وإنما لن تعطىكم شيئاً
يساعدكم في تكوين أخلاقكم . ولا أجهل مع هذا ولع الناس
بها في هذا الزمان . فهو محزون ومخيف » .

° ° °

نقائض كثيرة من هذا القبيل في أعماله وفي وصاياه .
فيل يقال من أجل ذلك أنه لغز من الألغاز النفسانية
التي تحيرنا في نقائض بعض العظماء .
لا نحسب أنه لغز غير مفهوم ، وإن بلغت نقائضه أضعاف
ما أشرنا إليه ، لأن الشخصية المألوفة هي الشخصية التي تعمل
ما لا تنتظره منها ، أو الشخصية التي تفاجئك في كل تصرف
من تصرفاتها بمصدر جديد تصدر عنه في أعمالها وأقوالها .
وليس غاندى كذلك على التحقيق .
لأننا إذا عرفناه لم ننتظر منه غير ما فعل وغير ما قال ،
في جميع هذه الأحوال .

° ° °

إننا لانحاسب غاندى محاسبة الفيلسوف ، ولا محاسبة
الحاكم ، ولا محاسبة الفنان .

ولمّا يوزن غاندى بميزانه الذى ليس له ميزان غيره .
وهو ميزان الناسك المصلح الجاد فى نفسه وإصلاحه : مظهره
الأول هو خلاص الروح قبل كل شيء وبعد كل شيء ، وليس
فى السكون كله ما يعتنى عنده هذا الخلاص . لأنه إتصال
بالإله مصدر الخير والسعادة ، وكل ما عداه فهو اتصال بما
دون الإله .

قال فى ترجمة حياته : « إن أعمالي فى ميدان السياسة
معروفة الآن فى الهند ، بل معروفة على نحو عا فى العالم
المتحضر بأسره . وهذا كله ليس بذى شأن كبير عندي .
فإن ما أردت أن أبلغه فى هذه السنين الثلاثين هو تحقيق
روحى وتصحيحها ؛ أو هو لقاء الله وجهاً لوجه . والوصول
إلى — الموكشا — أو الخلاص .. »

فالرجل كما أسلفنا ناسك جاد فى نفسه قبل كل شيء . وبعد
كل شيء ؛ عنايته الكبرى منصرفة إلى المسائل الأبدية التى
تتجسّد بأعمار الأكوان ولا تحسب بأعمار الآحاد . ولكنه
زعيم الهند وقائد أبنائها فى طريق الحياة القومية . فلا مناص
له من العناية بمسائل الحاضر وشواغل الساعة ، ومن هنا يأتى
التناقض لا محالة . كما لا بد أن يأتى فى كل توفيق بين مسائل
الأبد الباقى ومسائل الساعة العابرة .

قد يقال : وما للناسك الجاد في نسكه والسياسة ؟ إنه غريب عنها وهي غريبة عنه . . . عليه أن يعتزلها مع الدنيا ، وأن يدع للناس أمر دنياهم يدبرونه على هواهم ، وينجوا بروحه وضميره من هذا الزحام ، إلى صومعة من صوامع الوحدة والفنوت .

وهذه حقيقة تقال وتسمع في سيرة غاندى وأمثاله .
ولكنها حقيقة ناقصة ، لأنها حقيقة من جانب واحد ، وهو الجانب الذى يملكه غاندى ويختاره ، دون الجانب الذى يساق إليه على الرغم منه ، وهو قيادة الهند بأجمعها فى طريق الخلاص .

إن الهند لا تنفعها إلا زعامة واحدة : وهى الزعامة التى تخاطب روحها وتنفذ إلى صميم وجدانها .
إن زعامة الساسة الذين ينغمسون فى الدنيا تضلها وتؤذيها وتثير فيها الريبة وسوء المظنة .

فلم تخلق لها زعامة أصلح من زعامة الرجل الذى لا يستراب فى مقاصده ونياته ، وهو الرجل الناسك المقبل على عالم الروح .

فالهند لا تترك غاندى إذا تركها .
وهو إذا تركها كان أقل من غاندى وأصغر . لأنه يؤثر

خلاصه على خلاصها ، وينظر فيها يريجه ولا ينظر فيها يريجه .
وإنما يكون ترك الزعامة ، تضحية ، عندما تكون الزعامة
كسباً وجاهاً لصاحبها ، فيقال إنه ضحى بالكسب والجاه في
سبيل العزلة الروحية .

أما الرجل الذي يغتم من العزلة ولا يغتم من الزعامة ،
فالتضحية عنده أن يعيش بين الناس ويعمل مع الناس ، لأنه
يعطيهم كل ما يستطيع إعطاهم ، ولا يأخذ منهم شيئاً من الأشياء ،
في عالم الجسد ولا في عالم الروح .

ومثل هذا الرجل لن يعمل غير ما عمل غاندي ، ولن
يقول غير ما قال . فليس في وصايا زعيم الهند على هذا الاعتبار
لغز مستغرب . بل هي وصايا التي تجري في مجراها ونفهم
معناها ، وكل ما عداها فهو الغريب الذي يحتاج إلى تفسير .

وغير في يقين والمهاتما ، أن آفة العالم كله ، وآفة الهند
خاصة ، هي الحضارة الآلية . لأنها تحجب عن الإنسان مطالبه
العليا وتشغله بمطالب لا يحتاج إليها .

فهذه الحضارة الآلية لا تغني الإنسان ، بل تخلق له الحاجات
التي هو غني عنها ، وتسخره في سبيل هذه الحاجات المصطنعة ،
فيتهاك عليها ويتنازع فيها ، ويضرب على أعدائها من جراء
هذا التهاك وهذا النزاع

وليس لهذه الآفة دواء في عقيدة غاندى غير البساطة الطبيعية ، وهى الاستغناء عن كل ما يمكن الاستغناء عنه ، ووضع الآلة والصناعة فى وضعهما الأصيل : وهو خدمة الإنسان فى ضروراته ، وسد نقص الطبيعة فى خدمة هذه الضرورات .

وهو لا ينكر العلاج بالطب الحديث لذاته ، ولا ينكره على طريقة الخرافيين الذين يستبدلون به طباً آخر ينوب فيه علاج الجهل عن علاج المعرفة والتجربة العلمية . ولكنه يرى أن العلاج الطبى ضرورى فى حالة الحضارة الآلية ولا ضرورة له ولا فائدة فى حالة البساطة الطبيعية ، ولعله لا يخلو من الضرر إذا شئى به المريض ، فاعتمد عليه وانحرف عن سواء الطبيعة لأطمئثانه إلى إمكان الشفاء عن طريق العلاج .

فالبنية التى يلتزم صاحبها معيشة البساطة لا يختل مزاجها ولا يصعب — عند اختلاله عرضاً — أن يعود بتدبير البنية السليمة إلى سوائه . ولكنه إذا تناول الدواء فشفاه تعوّد مخالفة البساطة ولم يحذر عواقب المخالفة ، فأضعف بنيته عن قدرة التعويض والتصحيح ، واستمرأ العبث بطعامه وشرابه وأسلوب معيشته لأنه لا يحذر عقباة .

أما علاج المرض بتغذية الجسم بالأغذية المحرمة فى شريعة

المهند فذلك شيء آخر . لأن الأمر فيه يرجع إلى التعارض بين واجبين والموازنة بين أى الواجبين أولى بالترجيح على حسب اعتقاد المريض أو على حسب مشيئته واختياره .

فغاندى الذى يسوم أهل الهند أن يعرضوا عن فتنة الحضارة الآلية يعلم أنهم لا يقدرّون على ذلك إلا بقوة تعصمهم من تلك الفتنة ، وهى قوة الإيمان . فهذا الإيمان هو الحصن المتيع الذى ينبغى ألا تنفتح فيه ثغرة ، ولا يتزلزل له أساس .

فإذا وقفت الحياة الفردية أمام هذا الإيمان فهذه هى الخيرة أو هذا هو مجال الحسم والإثارة .

وغاندى إذن لا يهمل العلاج بالطب إهمالاً للحياة ، بل صيانة لكل حياة .

وإذا رجعنا إلى المبدأ لم نجد خلافاً بين غاندى وبين المصلحين من جميع التحل والعقائد . لأنهم يؤمنون جميعاً بصيانة الحياة الإنسانية ، ويؤمنون مع ذلك بمبدأ آخر لا اختلاف بينهم عليه . وهو : أن هذه الحياة لا تصان بكل ثمن ، وعلى الرغم من كل فريضة توجهها العقيدة أو توجيهها الأخلاق .

والفرق بين غاندى وغيره من المصلحين هو اختلاف

العقيدة ، لا اختلاف الرأى فى هذا المبدأ المتفق عليه .
فهناك أشياء تهون فيها الحياة فى سبيل هذا المبدأ كلها
تعارضت الحياة وسلامة الضمير والوجدان .

ولا معارضة للضمير عند المسلمين والمسيحيين مثلاً فى
تغذية المربض أو الصحيح بلحوم الحيوان . ولكن هذه
المعارضة قائمة فى عقيدة الهندين ، واحترام هذه العقيدة أمر
لا يترخص فيه رجل بقيم دعوته كلها على الإيمان ، ويعلم أن
الإيمان هو العصمة الوحيدة التى يغلب بها فتنة الحضارة وفتن
السياسة والسطوة والثراء .

ولك أن تقول أنه غير مصيب ، ولكنك لا تستطيع
أن تقول أن فى هذه الحالة لغز غير مفهوم .

ولك أن تقول أيضاً أنه يكلف الناس ما لا يستطيع ،
ويحملهم على حمل لا يقوى عليه كل إنسان من أتباعه ومريديه .
ولكنك إذا قلت هذا وجب أن تذكر أن غاندى فى هذه
الخصلة وسائر الدعاة والمصلحين سواء ، لأنهم جميعاً يفرضون
ما يحمل أتباعه ، ثم لا يتبعه إلا القليل من القادرين عليه ، ويبقى
الأكثرون وهم يحاولونه فيفلحون تارة ويخفقون تارات .

• • •

ولا تناقض بين اشتغال غاندى بالصحافة واستهجانه

لتهافت الناس عليها والاشتغال بأحاديثها وأخبارها ، فإنما الصحافة عنده صلة روحية بينه وبين قرائه ، وليست للقارىء صلة روحية بصحافة تشغله باللغظ والثرثرة وتضيع عليه الوقت فى التطلع والمحال .

فالجد فى النسك هو تفسير كل لبس فى حياة هذا الناسك العظيم ، ولولا هذه القوة الخلقية الهائلة لما تآتى له أن يكبح شهواته وهى ميسرة كل التيسير إن شاء . ومنها شهوات يستعصى كبحها على أقدر الرجال ، كشهوة الحكم ، وشهوة الترف ، وشهوة المال .

ولولا هذه القوة الخلقية الهائلة لما استنهض الهند كلها فى صراع يحتاج منها إلى كل قوة مدخرة فيها ، وهى فقيرة فى قوة العلم وقوة السلاح .

ولو أن الهند تلقته زعيما يلبس أحدث الأزياء ، ويغشى أظرف الأندية ، ويأخذ بكل بهجة من مباهج العيش الحديث لما زاد على الهند ولا على العالم شيء ، ولـكنها كانت تخسر كل ما استفادته من تلك البساطة الهائلة ، بالغاً ما بلغ فيها التناقض والإغراب .

• • •

على أن الجد فى النسك لا يدل فى غاندى خاصة على خلق

من خلائق التجهم والصرامة ، وهما أول ما يبادر الذهن من
كلية النسك وكلية الجد مقترنتين .

فلم يكن في الرجل تجهم ولا صرامة . بل كانت له سماحة
تفيض بالمرح والفكاهة في كثير من المواقف ، وكانت له فطنة
لمواقف تضحك الطبيعية ، لا تخطئها ذكته بريئة من الإساءة
والتكدير .

وتعبراته عن أخطر الأمور تدل على هذه الخليقة السمحة
وهذه السليقة الفكاهية التي يلطف بها جهامة العظام والخطوب .
سألوه مرة : كيف تغيب عنه معائب عقيدته التي يدين بها
نفسه ويدين بها أتباعه ومريديه . فحلّ المشكلة أخرف حلّ
وأصدقه في كلمات قليلة ، وقال : إن عقيدة المرء كزوجته .
وهو لا يحب زوجته لأنها أجمل النساء وأسلمهن من العيوب
ولسكنه يحبها ويلازمها لأنها أقرب النساء إليه .

ودعاه نائب الملك مرة في جمع من كبار الموظفين ورجال
الدولة ، فجاموه ببعض الشراب الخلو فاعتذر ودعى بكوب
من الماء . فلما جاموه به أخرج من حزامه صرة صغيرة ،
فأذاب ما فيها وهو يضعك ، وشربها . في صحبة نائب الملك ،
وإذا هو ملح ممنوع ، يشربه في المكان الذي يصدر منه
المنع والتحريم .

ودعاه نائب الملك مرة أخرى فسأله حفيده الصغير :
إلى أين تذهب يا جدام ؟ قال الجد الوقور متبسّطاً : إلى
نائب الملك .

قال الطفل دهشاً : ولكنك تذهب دائماً دائماً إلى نائب
الملك . فلماذا لا يحضر نائب الملك مرة إليك ؟
فلم يزل غاندى يضحك حتى فارق الدار .

إن الفكاهة فكاهتان : فكاهة النعمة وهي سلاح عدوان
ودفاع ، وفكاهة السماح ، وهي عاطفة تغتفر صفائر الناس كما
يغتفر الآباء صفائر الأبناء .

وقد كان نصيب غاندى من هذه الفكاهة أوفى نصيب .
إلا أنها فكاهة من قبيل السليقة النفسية وليست من قبيل
المللحة الفكاهية ، فهي تسرى إلى الشعور ، وقلبا تروى
بالكلام

وقد تناقض النسك والخصافة في رأى أكثر الناس ، بل
قرنوا — قديماً وحديثاً — بين الإعراض عن الدنيا واتخاذ
العقل والشعور . كأنهم — لإكبارهم متاع الدنيا — لا يصدقون
أن أحداً يتصرف عنها وله حظ من العقل الخفيف .

ولكن غاندى على التخصيص كان نقضاً بارزاً لهذا

التناقض المزعوم . فقد كانت له حصافة وكان له دهاء ، وكان من الأذكياء المعدودين ، وإن لم يكن من المعدودين بين أعظم المفكرين .

فقد يأتى بين أعظم المفكرين فى الصف الثانى أو الثالث . وقد يأتى فى الصف الثانى أو الثالث أيضاً بين أعظم الساسة وخطباء الجماهير .

ولكنه بين جبابرة الروح فى الرعيل الأول لا مرأى . وبهذه القوة الهائلة فيه قد استطاع ما لم يستطعه أحد فى الصف الأول من صفوف المفكرين ، أو صفوف الساسة والخطباء .

تقديره ونقده

كان غاندى يناوىء الحكومة البريطانية فى إبان الحرب العالمية الثانية ، فحق عليه بعض الإنجليز واتهموه بأنه من أعوان هتلر ، أو أنه من أولئك الذين عرفوا فى إبان الحرب باسم « الطابور الخامس » ، وهم الذين يساعدون النازيين بإزعاج خصومهم فى إبان القتال . فتصدى للدفاع عنه رجل من أكبر رجالات الإمبراطورية : وهو المارشال سمطس القائد السياسى الفيلسوف ، وقال إن غاندى أرفع من أن تلتصق به تهمة . لأنه رجل من أعظم رجال العالم ، وهيات أن يسخر لخدمة غرض من الأغراض .

وكان برنارد شو يقول : إن غاندى من العظماء الذين لا يمحو التاريخ بأفعالهم إلا مرة فى كل ألف سنة .

وكان رومان رولان — وهو من أكبر كتاب الغرب وأشرفهم فى العصر الحديث — يضع غاندى فى طليعة أقطاب الإنسانية ، ويبشر الغرب بأمثلته العليا ، وله فى سيرته كتاب يشف عن إجلال بالغ وحب عميق .

ولما نعى غاندى إلى أمم الغرب أسف البابا المنعاه وهو

رأس الكنيسة المسيحية الكبرى : وقال أسقف من رجال
الكنيسة الأمريكية : إن غاندى مسيح . ثم عطف فقال : إنه
لا يعنى بذلك أنه كاليسوع ، أو أنه يتشبه باليسوع . ولكنه يعنى
أنه السيد المسيح بعينه قد عاد إلى عالم الجسد لإتمام رسالة
الحب والصلاح .

وتلقى نواب فرنسا متعاد وقرواً خشعين .
ورثاه رئيس الوزارة الإنجليزية — أكبر خصومه
في ميدان السياسة — فأطرب في تعظيمه والأسف لتجذبه
الشرق ، وفى الإنسان ، فيه .
وليس في عزلاء جميعاً أحد يؤمن بديانة غاندى . بل
ليس فيهم أحد يرى في صلاح الحياة البشرية مثل رأيه . فهم
لا يعظمونه لأنهم يوافقونه ويتبعون عقيدته ورأيه ، ولكنهم
يعظمونه لأنه عظيم .

وإذا لم يكن تعظيم الرجل مقصوراً على شعبه وأهل
وطنه وعقيدته ، فذاك آية العظمة الإنسانية لامرأ .
فليس العظيم من لا يخالفه أحد . فقد يبلغ العظيم غاية
من العظمة ومخالفوه أكثر من موافقيه .

وليس العظيم من خلا من ناحية نقص . فقد يكون
حسبه أنه امتلاً بناحية عظمة ، وكان فيه موضع



غاندي ورومان رولان

obeykandi.com

لنقص ، كما كان فيه موضع للكمال .

وإذا ظهر نقص العظيم فليس تعليل ذلك أنه غير عظيم ، وإنما تعليله أن الإنسانية تقسح لأنواع شتى من العظائم ، وأنواع شتى من الدعوات ، وإنما إن تسكون في جعلها إنسانية كاملة إن كانت لا تعرف إلا نوعاً واحداً من العظمة وناحية واحدة من نواحيها .

وتعدد العظائم معناه الوحيد أن كل عظمة منها لازمة ، وأن كل عظمة منها متممة للأخرى ، وأنها تتم من ناحية النقص فيها ، فلا غرابة في استهداف عظيم للنقد والتعقيب ، بل لعله لا يستهدف للنقد والتعقيب إلا لأنه عظيم .

وهكذا كان غاندى في دعوته ، وهكذا كان في تفكيره على الخصوص .

كان فيه متسع للإعجاب الكبير ، ومتسع للنقد الكبير . وأحق ناحية فيه بالنقد هي الناحية التي استحق بها الإعجاب ، وهي ناحية الكفاح في سبيل الروح ، أو هي ناحية الكفاح بين الأشراف والأخس من طبعي الإنسان .

وأول ما يتقد من هذه الناحية أنه حصر ميدان الكفاح . فالرجل الذي كان يؤمن بأن الأبد كله هو معركة بين الروح والجسد ، قد أخرج كفاح الحضارة من هذا الميدان ،

وحصر الكفاح كله في روح الإنسان وأعضاء الإنسان .
لكنّ كفاح الحضارة في الواقع هو الميدان الأكبر
لغلبة الفكر وغلبة الروح ، أو لتقوية النفس صعداً في معارج
البأس والانتصار .

فالهرب من الحضارة هرب من ميدان هذا الكفاح ،
أو هو على الأقل انتصار في غير ملحمة ، وبأس لم يتعرض
لتجربة تدله على نفسه ، أو تدل غيره عليه .

إن سيئات الحضارة هي سيئات الجسد في مجال أوسع
وأبقى . . وفرصة الروح ، أو فرصة العقل ، في ترويض هذه
السيئات . هي فرصة الأمم بجماعات متعاقبات . فهي ألزم من
معركة الصومعة المنعزلة بين روح إنسان وجسد إنسان .

وإذا كان الإنسان الفرد يجد روحه في كفاح مطالب
الجسد وشهواته ، فالأمم التي لا أعداد لها تجد روحها في كفاح
مطالب الحضارة وشهواتها ، أو في هذا الصراع الذي يتلاقى
فيه الخير بالشر ، والقوة بالضعف ، والمعرفة والعلم بالجهل
والغيباء .

وما تعلت الإنسانية من شيء قط كما تعلت من الشدائد ،
وفي مقدمتها الحروب ، وهي شر ما يبتلى به الناس .
فكل حرب يأتي بعدها للإنسانية تاريخ جديد .

فتحت الحروب الصليبية أبواباً كانت مغلقة بين المغرب
والشرق ، وفتحت الحروب العثمانية أبواباً كانت مغلقة بين
العالم الحديث والعالم القديم ، فظهرت القارات الخمس بعضها
لبعض ، بعد أن كان شطر منها مطوياً وراء الحجاب .
وجاءت الحروب الحديثة فتقدمت معها المخترعات ،
وأصبحت هذه المخترعات شغلاً شاعراً للأمم في سبيل الدفاع
عن الحياة ، ولم تكن قبل ذلك تشغل أحداً غير الخاصة من
العلماء والمخترعين .

وقد يستطيع العالم الواحد أن يعرف أسرار القنبلة
النوية ، ولكن الأمر يحتاج إلى اهتمام أمة كبيرة ليحصل
ذلك العالم على الملايين من الذهب ، لينبى بها المصانع ويتخير
بها الآلات ، وترفق بها في مراتب التدقيق والإحكام .
وهكذا تساق الإنسانية إلى المعرفة بعضاً من الضرورة ،
وتندفع مع الشر فتنتهي إلى الخير ، وتنفذ للشهوات وتوازعها
ثم تقبض على زمامها بعد طول الجراح .
ومن طريق العقل يترقى العالم والحكيم .
ولكن الأمم لا تندفع معه إلا إذا اندفعت بغريزة
قاهرة ، دفاعاً عن الحياة أو طلباً للجد والسيادة .
والطبيعة تعلمنا ذلك كل يوم وتعلمنا إياه في ولادة
كل مولود .

فكل أب وكل أم يسهران الليل ويشقيان بالنهار لحفظ النوع وتربية الأطفال . ولكن قل أن يعيش طفل في هذه الدنيا لو قيل للآباء والأمهات : إنكم تحفظون النوع وتعملون لغير أنفسكم ، ولم تعطهم الغريزة سروراً وغبطة تختلج بها الأجساد ، إذ يحتملون هذه التضحية من أجل بقاء الحياة لأحفاد لا يرونهم بعد مئات السنين ، وألوف السنين .
وهكذا تساق الإنسانية إلى التعاون بين أبنائها والتضامن بين أقويائها وضعفائها . يطمع هذا في السيادة على الدنيا ، وينبرى هذا للدفاع عن حياته . فلا يسود هذا ولا يدافع هذا عن حياته وكفى . بل يعملان معاً للوحدة الإنسانية في أوانها المقدور . .

ومن طريق الحروب ومخترعات الحضارة تقاربت الأمم واشتركت في هذه الوحدة الإنسانية . فاشتبكت بينها المواصلات والمعاملات ، وبلغ من تقارب السكرة الأرضية ما لم يبلغه في عصر من العصور : ينطق القائل بالكلمة فإذا هي مسموعة بعد هنيهة على مسافة الألوف من الفراسخ ، كأنما القائل والسامع يجلسان في حجرة واحدة ، ويقع الحادث في الصباح فلا يعود صباح بعده حتى يملأ خبره ما تملأه الشمس من الأرضين والبحار ، وتهم الدولة القوية بعمل من الأعمال

فتنظر إلى أصغر دولة في أقصى الأرض لعلها تأتي ما تريد ،
واملأ قلب ميزان النصر في أزمة من أزمات النضال
فينحول النصر من فريق إلى فريق .

من أين كنا نلتصق هذا لو أحييتنا عن الحضارة من
مرحلتها الأولى ؟

إننا أطلعنا المادة غاية ما نطاع ، حتى كشفنا عنها الستار
فإذا هي نور .

وعلم الناس من خبر دلفينة الذرية ، أن المادة شعاع
وأن الشعاع ، حمية رياضية ، تدركها العقول ولا تتوقف على
كثافة الأجساد .

فعدت بنا المادة إلى عالم العقل المجرد ، ولكن من طريق
الإيغال فيها لا من طريق الإحجام عنها أو من طريق
الكشفاح لا من طريق التسليم .
ذلك كله حق نسبه الآن .

وذلك ما لم يدخله غاندي في حسابه ، وهو يبشر بدعوته .
ولكن هل كان في رصده أن يدخله في حسابه . وتبقى له
دعوة تدعى ؟

إن المثل هنا أعون على الجواب من إطنانة الشرح والبيان .
فانظرب قد تعلم ولا ريب من الأوبئة والطواعين ، ولو لا

الوباء بعد الوباء لما عرف الأطباء أسرار الجراثيم ، ولا
حقائق الأمراض .

ولكن الطبيب مع هذا يوصى بالدواء ، ولا يوصى
بالطاعون .

وغاندى هو الطبيب ، وشرور الحضارة هي الطاعون !
فإن كانت له في هذا العالم دعوة فلن تكون هذه الدعوة
إلا كما دعاها ، وإن لم تكن قط فتلك هي الخسارة على الناس
في هذا الميدان الفسيح الذى يتسع لجميع الدعوات .
ومثله بين المصلحين كمثل العازف الماهر الذى لا يسمع
وحده . ولكنه إذا سكت كانت كل فرقة موسيقية ناقصة
بغيره .

ومكانه من العظمة أنه يتمم هذا النقص .
وليس مكانه من العظمة أنه خلا من كل نقص يعاب عليه .
وحسبه ذلك من مراتب الكمال التى تتاح للإنسان .

مصر

في صباح يوم السبت (الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٤٨) ، خرجت من أرض الهند آخر فرقة من الجيش البريطاني كانت معسكرة فيها ، بعد أن احتلها هذا الجيش بمئات من الفرق ، زهاء مائتي سنة .
خرجت من ميناء بومباي .

ووقفت قبل خروجها تبادل فرقة من الجيش الهندي تحية السلاح .

وعزفت موسيقاها بنشيد « حفظ الله الملك » ونشيد الهند الوطني « قاندي ماترام » .

وهتف قائدها « جاي هند » أي لتحي الهند . . . وكان آخر من صعد إلى السفينة ، في عودة كان مقدما في الواقع قبل مائتي عام .

وبهذه الصفحة طوى السجل الذي كتبت صفحته الأولى في الثالث والعشرين من شهر يوقية سنة ١٧٥٧ : وهو يوم المعركة التاريخية في حياة الشعوب الهندية ، وحياة الدولة البريطانية : معركة « بلاسي » التي بسطت يد اللورد

• كلايف ، على العروش في الهند والشعوب .
كنت أقرأ في صباى كتاب « الأبطال » ، لتوماس كارليل
الفيلسوف الإيقوسى الكبير ، وكنت أعجب منه بالفصل الذى
كتبه فيه عن شكسير ، وكان أعجب ما يعجنى منه خاصة قوله :
إن شكسير أعز على الأمم التى تتكلم الإنجليزية من الهند
وكنوزها . لأن الهند وكنوزها ستخرج من أيدينا فى يوم
من الأيام . أما شكسير فهو الفخر الذى لا يسترد ،
ولا يزول .

ستخرج الهند من يد الدولة البريطانية فى يوم من الأيام ؟
نعم . إن يوم الخروج لا بد آت . ولكن متى ؟ متى يحين
ذلك الحين الذى نظر إليه الفيلسوف ؟

لم نقدر بأية حال أنه حادث من الحوادث التى نشهدها فى
هذه الحياة ، وأنه سيصبح عما قريب خبراً من أخبار البرق ،
التي يوالينا بها فى هذه الأيام .

وأكبر الظن أنه لو لا رجل واحد ظهر فى الهند ، لتأجل
موعده إلى حياة أبناء ، بل حياة أحفاد .

ذلك الرجل الواحد هو « غاندى » ، بلا مرأه .

لقد اشتركت فى تهيئة ذلك المنظر الصغير — على ميناء
بومباى — عوامل لا تحصى فى صفحات .



غاندي پڻ حقيقتيه

obeykandi.com

عوامل بعضها من الهند نفسها ، وبعضها من القارة
الآسيوية في جملتها ، وبعضها من السكرية الأرضية بأسرها .
ولسكنها إذا وجب أن تحصر في شخص واحد ، لم نجد
شخصاً واحداً نحصرها فيه ، غير ذلك الجسد الضئيل : ذلك
الروح العظيم .

إنه هو الرجل الواحد الذى يمكن أن يقال أنه عجل
بذلك اليوم حتى دخل في حوادث هذه السنة (سنة ١٩٤٨) ،
للبيلاد . .

لأنه هو الرجل الواحد الذى أدخل في روح الإنجليز
أن بقاءهم في الهند عناء لا جدوى لهم فيه ، وأن الجلاء عنها
أصلح لهم من البقاء .

فقد كان من الجائز — بعد هزيمة اليابان في الحرب
العالمية الثانية وزوال الخطر اليابانى عن الهند — أن توازن
بريطانيا العظمى بين البقاء والجلاء فيبدو لها أن البقاء أيسر
كلفة من الجلاء . ولكن غاندى هو الذى قلب لها كفتى
الميزان فأقنعها بأن الأمر معها على نقيض ذلك ، وأن جلاءها
أيسر كلفة عليها من بقائها ، لأنه جعل المقاطعة السياسية
والاقتصادية سلاحاً قاطعاً يضاعف مشقة الإنجليز في حكم

الهند والاضطلاع بتبعية الدفاع عنها ويقلل من منافع هذا الحكم ومزاياه . وكان مرجع الفضل في نجاحه إلى إخلاصه وتجرده المطلق من المآرب الشخصية ، فلم يشق على أحد من خاصة أهل الهند وعامتهم أن يقنع بالكفاف وأن يتحدى المحن والشدائد ، وهو يرى أمامه رجلاً عالمياً موفوراً الكرامة والوقار يقنع من الكساء والغذاء بكلفة لا تتجاوز بضعة دريهمات .

وأعانه على رسالته أنها رسالة من طبيعة الهند وعصرها ، لأنها رياضة روحانية في بلد الفقراء ، والنسك . فصيح فيه أنه رد الهند إلى روحها أو رد روح الهند إليها . وبحق جعل الهنود مغزله شارة الهند على علمها المثلث ، ذي اللون ، الأخضر ، الأبيض ، البرتقالي ، ... وحولوه إلى مغزل ، بوذا ، الذي يغزل به خيوط الحياة .

وقد وعى القوم درسهم من الحرب العالمية الأولى . فلما نشبت الحرب العالمية الثانية لم يقبلوا كما قبلوا في الحرب الأولى أن يبيعوا عاجلاً بنسئ ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن ينصروا قضية الديمقراطية ، وأخذوا على الإنجليز العهد أن يكون لهم من هذه الديمقراطية نصيبٌ لا وكس فيه ولا تسويق ، وكان غاندى على طليعة المتطرفين ، في هذه الحملة . لأنه

جعل نداءها على كل لسان : « أتركوا الهند ، ... وأصر على
الجللاء بغير شرط ولا قيد ولا تسوية .

وبدأت هذه الحملة والحرب قائمة ، والجيش اليابانية
تغير على بورما وسنغافورة ، وتجد لها أشياء في داخل الهند
من أبنائها الذين استجابوا لدعوة (آسيا للأسيويين) .
وكانت مسألة الخلافة الإسلامية قد انتهت في أعقاب
الحرب العالمية الأولى ، فعمل المسلمون في الحركة الوطنية
غير مرتبطين بخطة من خطط السياسة البريطانية قبل دولة
الخلافة ، سواء فيما اختاروه من مقاومة أو وفاق .

وراحت حكومة بريطانيا العظمى تقترح الحل بعد الحل ،
وتشرع النظام بعد النظام ، وتستشير نارة وتنقرد بالرأي
نارة أخرى ، فانهت إلى حل موقوف في حكم البلاد الهندية
بجملتها ريثما تتجلى عنها وتنفض من تبعاتها كلها يديها ، وهو
حل الحكومة الاتحادية التي يقوم عليها مجلس وزراء وهيئة
نيابية يشترك فيها الهندوسيون والمسلمون

فحبط هذا الحل أمام عقبة كأداء تنقرد بها الهند خاصة
بين بلاد العالم ، وهي عقبة الأقليات
وليس شأنها في الهند كشأنها في سائر البلاد الأخرى ،
لأنها في الهند أقليات وليست بأقليات .

فالمسلمون في الهند كثرة غالبية في بعض الأقاليم ، وقلة
صغيرة في بعض الأقاليم ، وقلة كبيرة في أقاليم أخرى .

وبينهم وبين الهندوسيين اختلاف شديد في الجنس واللغة
والعقيدة ، لخصه السيد محمد علي جناح رئيس الرابطة
الإسلامية في كلمة واحدة حين قال : كيف يُحكم بنظام واحد
قوم يعبدون البقرة وقوم يأكلونها ؟

وأعضل ما في الأمر أن وطنية الهندوسيين هي في صميمها
وطنية عقيدة روحانية ، أو عقيدة دينية ، وأن زعيمها لم يفلح
في دعوته إلا لأنه قاد دعوتها الوطنية من هذه الناحية .
وما في كل يوم يجد المسلمون أمامهم زعيما كغاندى يعتصم
بالبساطة في قوة وصدق طوية ، ويستطيع أن يروض أتباعه
على العدل والرفق وحسن المعاشرة وفض المشكلات بترضية
المخالفين في الرأى والعقيدة .

على أن غاندى نفسه قد غالته يد هندية لأنه استهجن ذبح
المسلمين والتشنيع بنسائهم وأطفالهم على مشهد من الشرطة
وجنود الحكومة الهندية . فإذا أوجس المسلمون شراً من
حكومة كهذه فلهم العذر كل العذر في شرعة المنصفين .

ولم يجدوا بداً في النهاية من إقامة دولتين منفصلتين

إحداهما هندوسية والأخرى إسلامية تعرف باسم الباكستان .
ويقتل من يشاء من أتباع إحدى الدولتين إلى بلاد الدولة
الأخرى مع تنظيم الهجرة وتبادل السكان .

ولم يكن تنظيم الهجرة بالأمر المعسور . لأنه بمثابة اقتلاع
ملايين من الأسر من أما كن قد استقرت فيها وارتبطت فيها
بمعاملاتها وأسباب معيشتها ، إلى أما كن أخرى لا تتسع لها
في كثير من الأحيان ، وليس هناك من يموض أحداً عن
ماله المتروك في البلد الذي يهاجر منه ، أو البلد الذي
يهاجر إليه .

وما هو إلا أن أعلن قيام الدولتين حتى كانت مشكلة
السكان هذه مثار الخصومات والفتن في كل بقعة يعيش فيها
المسلمون مع الهندوسيين والسيخ منهم خاصة . وانطلق أناس
من غلاة المتعصبين يطاردون المسلمين من مساكنهم ويعملون
القتل والسلب فيهم ، ويغيرون على المساجد فيلوثونها أو
يهدمونها أو يحولونها إلى معابد هندية وينصبون فيها صورهم
وأوثانهم ، ولا يعترضهم أحد من الشرطة والجند ، بل
يشاركونهم في هذه الجرائم ، ويحرضونهم عليها ، ويزودونهم
بالسلاح الذي يعلم العارفون بالهند أنه كان محظوراً على جميع
الهنود في عهد الدولة البريطانية . واقترب هؤلاء الغلاة من

الآثام والمجازر في صيف تلك السنة (١٩٤٧) ما لعله لم يحدث قط في هذا الزمن في بلد من البلدان .

وكان على رأس المجرمين الذين فعلوا هذه الأفاعيل جماعة وطنية متهوسة تعرف باسم « مهاسابها » ، أو الجماعة الكبرى تناخص مبادئها في إقامة حكومة هندوسية واحدة والقضاء على حكومة الباكستان وتجنيد جميع الشبان ومطاردة المسلمين ومعاملتهم معاملة الجواسيس المهددين لأمن الدولة الهندوسية وتحريم الدخول في الدين الإسلامي على أبناء النحل الدينية الأخرى .

وكانت هذه الجماعة لا تبالى في نشراتها اليومية — وهي تعرض الغوغاء على القتل والسلب — أن تؤكد لهم علانية ، معاونة الجيش والشرطة ، وحمايتهم من الاعتقال والتحقيق . وكان غاندى أشد أهل الهند نقمة على هذه الفتنة المخزية وجرت على لسانه كلمات يأس وشكاية لم تسمع منه قط في أحلك أيام جهاده ، فكان يقول لمن حوله : هذه أحوال لا تغرى بالعيش . ويسأل مع الشاعر : إلى متى أقيم في هذه الدنيا ألعب هذه اللعبة ؟ يعنى الحياة .

ولما أعرض المهيجون عن نصائحه المتكررة نذر الصيام حتى الموت أو تجاب مطالبه ويتحد المسئولون على العمل بها :

وهي كما نشرتها صحيفة نيويورك تيمس (في يناير سنة ١٩٤٨) :
 السماح للمسلمين بإقامة احتفالهم السنوي في معبد مهرولي
 القريب من دلهي ، وإعادة المساجد المختصة إليهم ، وصيانة
 حياتهم وأموالهم ، والترحيب بعودتهم إلى مساكنهم وتأمينهم
 في السفر ، والسكف عن مقاطعتهم في الحياة الاجتماعية ،
 ومضى في صومعه خمسة أيام ، ثم جاءه الزعماء وقادة
 الجماعات مستغفرين ، وقطعوا له العهد على قبول وصاياه جميعاً
 والعمل بها تَوْأً ، فعدل عن صيامه ، واستطاع أن يرجعه إلى
 مهرولي ، ليشهد مع المسلمين مولد قطب الدين بختيار ، الذي
 احتفلوا به في السابع والعشرين من شهر يناير ، وعاوده الرضى
 بعد ما اتاباه في الفترة الأخيرة من رأس قاتم . وحزن أليم .
 إلا أنها الفتنة قد جن جنونها وانقطع عنايتها ، ونظرت
 إلى غاندى وهو يكبح شهوتها ، كما ينظر الوحش المحتاج إلى
 الحارس الذي يدفعه عن فريسته . إنه قد يدع فريسته إلى
 حين لينشب أضافره في الحارس الذي حماها .
 ففي العشرين من شهر يناير ألقى طالب اسمه «مادان لال»
 قذيفة على غاندى لم تصبه ، فلم يحفل ولم يرتجف منه عصب .
 ومضى إلى الصلاة وهو يوصى الشرطة ألا يعنفوا على «الصبي
 المسكين»

وانتهجت الشبهة في هذا الحادث إلى جماعة رياضية على النظم الفاشية ، تسمى جماعة المتطوعين لإنقاذ الوطن . ولكن التهمة لم تثبت عليها وظهر أن الجريمة من عمل متآمرين ينتمون إلى «المهااسبها» أو الجماعة الكبرى .

ولم يردعها إخفاق هذه المحاولة عن جريمتها التي بقيت النية عليها ، فعادت إلى الاقتراع بين أعضائها على من يتولاها وينجح فيها ، فكانت القرعة من نصيب فتى من محرري الصحيفة المتطرفة «هندوراشترا» يسمى : «ناتورام فيناياك جودس» . فتقبل القرعة متهللاً ، لأنه كان من أشد المبغضين لغاندى ودعوته الإنسانية . وكان كثيراً ما يقول : «إن لى رسالة لا بد من أدائها» .

وما نظن أن قاتلاً ضربت نفسه بالشر كما ضربت نفس هذا التعس المفتون ، فحسبك نية القتل إذا كان القتل هو غاندى ، تلك وحدها كافية . ولكنها لم تجمع كل ما فى طويته من ضراوة إبليسية . فقد تعمد بالقتل وهو فى موقف يثنى يد الشر ويخلق الضمير النادم لمن مات فيه الضمير . تعمد بالقتل وهو يسعى إلى الصلاة بين حفيدتين بريئتين ، وينظر إليه نظرة العطف الوديع التي يغمر بها كل من حيّاه .

كان غاندى فى يوم الجمعة (الثلاثين من شهر يناير) يتحدث



« جودس » قاتل خاندي

obeykandi.com

إلى السردار باتل في شأن خطير ، فأخبره الحديث عن موعد الصلاة . فلما كانت الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة ، قال لمحدثه العظيم : الآن دعني . . إنه موعد الصلاة . . وخرج بين حفيديه آفا ومانو ليؤدي صلاته في معبد قريب . . فاقرب منه فتى في ستره خاكية وصدار أخضر ، وهو يطوى ذراعيه على صدره علامة التحية الهندية ، وقال له : لقد تأخرت يا أبت . فتمتم غاندي مطرقاً كالمعتذر ، وهو يقول : نعم تأخرت يا بني . وانحنى الفتى كأنما يهم بتقبيل قدميه ، فنظر إليه غاندي نظره الوديعه وابتسم له في رفق وبمناعة ، وطوى ذراعيه على صدره رداً للتحية . فإذا بالفتى قد وثب واقفاً وفي يده أداة لا تكاد تنظر — مسدس بيريتا الصغير — وأطلق منه ثلاث رصاصات على صدر المهاتما على مدى ذراع . فهتف غاندي بالصلاة : « آي رام . آي رام . . » وسقط إلى الأرض رافعاً يديه كما كان يرفعهما لمن يدعون له بالحياة .

ولم يعيش بعدها غير ثمان وعشرين دقيقة ، ولم يفه بعدها بغير هذه الكلمات : « إذا كنتم لا تريدون أن أعيش . . فلا أرب لي في العيش »

وظل القاتل كلما سئل بعد ذلك يضحك ويقول : لست بنادم . . ولست أجهل ما ينتظرنى . . ولسكنى لا أبالي . . إننى

أفحمت إسمي على التاريخ بأحرف من نار ، ...
صدق أفا في وسع التاريخ أن ينساه ، لأنه في تاريخ بني
الإنسان كله إسمٌ وحيد .

وتم العجب من سيرة غاندى حياً وميتاً .
رجل رفع أبصار الناس إلى أوج السماء ، فهبط بها قاتله
إلى قرارة الجحيم .

رجل وهب للهند حريتها ، فسلبته الهند حياته .
رجل أراد أن يمسح العدوان من ظهر الأرض ، فمات
معتدى عليه .





جہان غاندی علی شاطی، النہر المقدس — نہر د جنا ء

obeykandi.com

هَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ

وَجِئْتُ حِينَ سَمِعْتُ النَّبَأَ (١).

وما أضنّ النبأ إذا قيل على إطلاقه مخابراً إلى تفسير
فما كان للكرة الأرضية من شاغل غيره في زاوية من أقصى
زواياها . لقد أوشك أن يكون حادثاً من حوادث الكون
بما رحب ، بل كان حقاً حادثاً من حوادث الكون . لأنه
على أوثق اتصال برسالة الروح .

وَجِئْتُ وَطَالَ بِي الْوَجُومُ ، بَلْ ذَمَلْتُ وَطَالَ بِي الذَّهُولُ .
لأن الخبر إنما يهد له خبر مثله ، ولأن الحادث إنما يقاس
على نظيره ، ولا نعرف نظيراً لمصرع غاندي في كل ما سمعنا به
من أنباء العالم ، وفي كل ما عرفناه من حوادث التاريخ .

لقد قتل من قبل مصلحون وقديسون .

ولسكنهم قتلوا بيد السلطة التي تخاف منهم على نفسها
أو قتلوا بأيدي الطعام المحتاجين وهم يسفرون أحلامهم
ويحطمون أصنامهم ، ويبدلون شعارهم ، ويتسلسون منابرهم
فيشور الشر في نفوسهم ، ويهجمون على القتل وهم لا يفقهون
ولا يفقهون .

(١) نشرت غداة وصول النبأ بمصرع غاندي .

ولكن مصرعاً كمصرع غاندى لم يحدث قط فيما علمناه
من حوادث التاريخ .

لم يحدث قط أن ترتفع يد بالشر إلى رجل لا يسه
الأحلام ولا يبشر بغير السلام : رجل فى الثامنة والسبعين
يسعى إلى الصلاة يتوكأ على حفيدتين بريئتين ، ويكف الشر
فى النفوس بوقار سنه وضعف شيخوخته وطية سكينته
واستسلامه . رجل يدين بما يدين به قاتله المتعصب لعقيدته .
وقصارى ماتنتهى إليه تلك العقيدة - عند ذلك القاتل التعس -
أن قتل البقرة حرام ، وأن قتل القديس العظيم مباح .

خارقة من خوارق الإثم تشده العقل وتشل الخيال ،
فلا تدرى الأذن كيف تسمعها ، ولا يدرى الحس كيف يحملها
إلى رأس أو ضمير .

لقد خرج غاندى إلى البحر يتحدى « قانون الملح » المشهور ،
وخرج ورامه ألوف من الرجال والنساء . وأمرهم أن يصبروا
للضرب ولا يضربوا ، وأن يتعرضوا للأذى ولا يردوه بمثله .
ثم لاح ذلك الشبح الهزيل للجند القائمين فى طريق البحر وهم
صفوف من وراء صفوف ، فانفجرت صفوفهم له وتركوه
يمضى فى سبيله ، ثم انطبقت من بعده على الجموع التى تبعت
لتعمل فيها الضرب والمكهم وتهوى عليها بالعصى والبرايات .

فإذا بقزم الجسد مارد الروح ، قد وقف عند البحر خاشع
الرأس دافع العينين ، يبكي وحيداً لأنه سلم وحده ، وأصيبت
من ورائه تلك الرؤوس والأجسام .

لقد مثل بين يدي القضاة فسأله قاضيه : أمذنب أنت
بحكم القانون ؟ فقال : نعم مذنب ، وأعود إلى الذنب متى
قدرت عليه .. فأحس القاضي إحساس المذنبين أمام هذا
المتهم الذي لا يحس إلا إحساس الشهداء . وقال قوله التي
سيخلد بها في سجل القضاة : إني أحكم عليك مكرهاً ،
وسأكون أول من يهتك متهجاً ، إذا استخدم حاكم الهند
حقه في العفو عنك ، وهو حق لا يملكه القضاة .

مستعمرو بلاد هابوه ومجلوه .

غاصبو وطنه أحجموا عن المساس به والقسوة عليه .
وإشاء النحس لذلك الوطن المنكوب ، أن يشتمل على
مخلوق من أبنائه : مخلوق من أبناء البشر ، تتحرك يمينه
بالقذيفة القاتلة إلى صدر لم يبق فيه مع الحب الشامل لبني
الإنسان — ولكل بني الإنسان — غير جلود وعظام .
قل منذ أيام أن قذيفة ألقيت على غاندي ففجأ منها .

فوقع في الأنفس أن نجاته من تلك القذيفة حدث من
أحداث الطبيعة لاغرابة فيه .. كأن المادة نفسها تنهاب أن

تمضى بالأذى إلى هيكلك ذلك الروح .. كأن القذيفة ترتد
- ولا تستطيع إلا أن ترتد وحدها - عن القداسة التي أخضعتها ،
ولم تخضع لها قط في تجارب الحياة .

فلما قيل إنه قتل بيد إنسان ، قد والله سألت : كيف
تحركت عضلة في جسد بشرى بضربة قاتلة لذلك الشهيد ؟
قد والله سألت عن اليد التي لا تعقل ، لأنها كانت خليفة
أن تعجز عن الحراك إذا سيمت مثل هذا الحراك الذي يشد
عن كل قانون ... ولم أسأل كيف سولت نفس ، ولا كيف
هجم ضمير .. لأن من الهول الهائل أن يدخل مثل هذا الجرم
في حساب نفس أو ضمير .

وباسم الوطن وخدمته يقتل القاتل ويصاب الشهيد ! .
باسم الوطن وخدمته ، يعتدى أكبر مسمى إلى وطنه على
أكبر محسن إلى ذلك الوطن المنكوب .

فليس في العالم صديق للهند ولا عدو من أعدائها ،
تخامر ذرة من الشك في فظيعة من الفظائع يقدم عليها
المتعصبون هناك ، إذا كان النهى عن التعصب ذنباً يستحق
عليه مثل غاندى أن يحرم نصيبه من الحياة .

ومن غاندى الذى يحرم هذا النصيب الضئيل ؟
غاندى الذى تدين له الهند بأعظم الديون ..

غاندى الذى وهب الحرية للهند ، وصنع للهند مالم يصنعه
هندي قط منذ خلقها الله .

غاندى الذى تقدى حياته بحياة الملايين ، لأن الإنسانية
لا تزال مفتقرة إلى أمثاله ، ولو كان فيها من أمثاله ألوف . .
فكيف بافتقارها إليه وهو واحد مفرد في هذا الزمان .
كبر على الهند أن يظهر من أبنائها أشرف إنسان
في زمانه . فأبى عليها النحس ، إلا أن يظهر فيها أشأم إنسان
في كل زمان .

ومن يقتل شرف الإنسانية كلها إلا مخلوق يحجل من
إنسانيته كل إنسان . بل كل حي من الأحياء ، وكل ضارية
من ناهشات الأبدان ، وكل ساعية من ناقتات السموم .
ويسألون : ألا جزاء يحزى به وراء الإعدام ؟

فما الإعدام في جانب الوصمة الأبدية يحملها المسكين
وحده في تاريخ البشرية بأسرها ، فيذكر وحده إذا ذكر الخزي
الذى لا خزي مثله في طوايا التاريخ .

هذا هو الإنسان في بؤرته السفلى .

وذاك هو الإنسان في ذروته العليا .

وفي خشوع لا ينتهى ، نحى الإنسان المشرف للإنسانية .

وفى حياه لا ينتهى ، نزوى البصر عن خزى الإنسانية
فى جميع توارىخها .
أعانها الله على كفارة تمهد بها العذر لنفسها ، بين يدي
ضميرها ، وبين يدي كل حى من خلائق الحياة تحمله هذه
الغبراء ...
وبين يدي الله ...



عظاء الهند ينتظرون جثمان غاندى
بردار بانل ، وأبو السلام آزاد ، والشاعرة فايدو ، ونهرو